ليس للإسلام وطن قومي

ليـــس للإسلام وطن قومي، فكل وطن هو للإسلام. ولكن في وقت الابتلاءات والمحن الدنيوية.. غالبًا ما ينســـى المســـلمون في بعـــض الأقطار هذه القاعدة الأساسية الثابتة المضيئة.. ويرتكبون الأخطاء، فيقاسون ويصـــيرون سببًا في تشويه سمعة الإسلام. ونتيجة لذلك يطالَبون بتحديد انتماءاتهم. ففي كثير من البلاد ذات الأغلـــبية غـــير الإسلامية يطرحون هذا التساؤل على الأقليات الإسلامية: خبِّرونا بصراحة، هل إخلاصكم للإســـلام أم لوطـــنكم في المقـــام الأول؟ والحقيقة هي كما قلت: ليس للإسلام وطن قومي، فكل وطن هو للإسلام. وتنطوي هذه الحقيقة على أسرار من الحكمة البالغة.

حقيقة ينساها المسلمون

فمن الأشياء التي تبرز جليةً أمام الإنسان أن التصادم بين الإسلام والقومية غير ممكن في أي مكان من العالم. أعـــني أن مـــبادئ الإسلام الحقيقية عالمية في جوهرها، فلا احتمال للتصادم بينها وبين القومية في أي بلد من العـــالم. وهذا أمر منطقي، لأن التصادم بين الكل وجزئه محال تمامًا. فلو كان الإسلام يتصادم مع وطنية قوم يعيشـــون في مكان ما من العالم.. لكان معنى ذلك أن الإسلام لا يصلح لهم دينًا، ولا يحمل لهم رسالةَ رحمة، ولا يستطيع أن يدعوهم إلى حياة الأمن والسلام في كنفه! ويحق للمواطنين في هذه المنطقة القول: نعم.. يمكن للإسلام أن يكون رسالة رحمة للعرب أو لأهل إندونيسيا أو ماليزيا أو باكستان.. ولكن ليس في الإسلام سلام لنا.. لأنه يتعارض مع هويتنا الوطنية!

هـــذه حقيقة أساسية واضحة، ولسوء الحظ، ينساها المسلمون أحيانًا ويثيرون موضوع القومية الإسلامية؛ وهذا يوقع المسلمين في صِدام مع غيرهم. الحق أن واجبنا هو الفوز بالقلوب في العالم كله، والفوز بالقلوب لا يمكن عن طريق القتال وإنما تُحارَب معركة الرسالة الإسلامية في مناخ مختلف، وفي موقف مختلف. في معركة الرسالة الإسلامية تعمل المبادئ التي لا علاقة لها بمعارك الدنيا. وفي مناسبات عديدة علّم الله تلك المبادئ لأنبياء كـــثيرين، وهي مبادئ لا يمكن اتباعها في حروب الدنيا. وعلى سبيل المثال، كان السلاح الذي وضعه سيدنا المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام في يد النصارى: مَن ضرَّبك على خدك فأَدِرْ لـــه خدك الآخر! والمعركة الـــتي كان هذا سلاحها، والحرب التي وُصف لها هذا السلاح.. حرب روحانية. ولقد أخطأ بعض النصارى وأخـــذوا بها على أنها تعليم دنيوي. ولما كان هذا التعليم لا يصلح في المواقف الدنيوية فلم يعمل في صالحهم، لذلك فإنهم قد نبذوه تمامًا من الناحية العملية. ومن ثم لا تجد بلدًا واحدًا في العالم يعمل اليوم طبقًا لهذا التعليم العيســـوي الروحاني العظيم. إنه تعليم روحاني، ولكنهم أخذوه بالمعنى الدنيوي.. فكانت النتيجة أنهم رفضوه عند التطبيق العملي ونبذوه عند كل اختبار، واليوم هذا هو الحال في كل العالم المسيحي.

إذن فالدين مرتبط بالعالم الروحاني، ومعركة تعاليمه تُحارَب بالمفهوم الروحاني. فإذا قيل: إن الإسلام جاء ليظهر على الدين كله، فذلك لا يعني أن يرفع المسلمون سيوفهم لقتل من رفض الإسلام، أو لا يسالموا إلا من

خضع وأحنى رأسه، لأن الإسلام سيصبح بذلك رسالة حرب وعنف بالنسبة لغير المسلمين. هذا ليس من العقل في شيء، ولا يمكن تطبيقه في العالم، و لم يحدث أن طبِّق من قبل. وعلى الجماعة الإسلامية الأحمدية جعل هذا المبدأ دائمًا نصب عينها. عندما نتحدث عن معركة الجهاد أو نصر الإسلام على الدين كله.. فإنما نتحدث بحسب مسميات القرآن ونبي الإسلام ﷺ، وهذا لا علاقة له بمسميات العالم الدنيوي.

هذا هو السبب أنه في محنة اليوم.. فشل المسلمون في فهم تلك الأمور، لأن قادتهم قدّموا لهم تعاليم خاطئة.. فوجدوا أنفسهم غارقين في المشاكل من كل ناحية، ويزداد موقفهم سوءًا يومًا بعد يوم. إنهم أقليات في بلاد شتى، وبسبب التعاليم الخاطئة لا يستطيعون حفظ علاقاتهم على الصراط السوي، ولا يستطيعون توجيهها الوجهةَ الصحيحة. فيقاسون أشد الأضرار، ويكونون سببًا في الإضرار بسمعة الإسلام أكثر وأكثر.

هذا سؤال يثار في كل مكان من العالم غير الإسلامي. وفي بريطانيا مثلاً حيث لا يتلقى المسلمون الجواب الصحيح، تأتي استجابة بعض الذين يجهلون هذا الأمر في طرقات المملكة المتحدة كرد فعل لذلك، بما يعرّض المسلمين كل يوم لمخاطر كثيرة. فتشعل الحرائق في مساجدهم، وتوجَّه إليهم التهديدات، ويتعرضون للأخطار وهم يسيرون إلى أعمالهم اليومية. جاءتنا الأخبار اليوم أنهم أمسكوا بسائقين من سائقي سيارات الأجرة وضربوهما ضربًا مبرحًا، لأنهما ممن يؤيدون صدام حسين. هذه كلها من الجهل الذي لا صلة بينه وبين الإسلام. فتعاليم الإسلام عالمية، ولها سمات العالمية، وهي تعاليم غالبة بسبب قوتها الداخلية، ولا يمكن لأحد في العالم أن يهزمها، أو أن يقيم ضدها اعتراضًا واحدًا صحيحًا.. لأنها قائمة على الحق.

وقت الاختبار

فعند كل محنة وفي كل مناسبة، ينبغي على الجماعة الإسلامية الأحمدية دراسة ردود فعلهم العفوية بنظرة عميقة. كلما يثور اضطراب فيما حول الإنسان يضطرب أيضًا قلبه وتتولد فيه الكراهية، وهذا هو الوقت الذي تختبر فيه نفسك لتعرف هل أنت في طريق الإسلام أم في طريق غيره؟ تتولد الحسرة والمرارة في القلب، سواء بسبب خلافات شخصية أو بسبب خلافات قومية، وفي معمعة هذه الإثارات يستطيع المؤمن أن يتعرف على عقيدته في مرآة قلبه، ويستطيع أن يرى صلته بالله جل وعلا. فعلى الجماعة الإسلامية الأحمدية في أنحاء العالم أن تبدو استجاباتهم بحيث لا يتردد المسلم الأحمدي الإنجليزي في أن يقول: هذه تعاليم الحق، ولا مجال لأن تتعارض أبدًا مع ولائي لوطني، ويشاركه المسلم الأحمدي الأفريقي أيضًا في الاستجابة قائلا: إنها التعاليم العالمية الحقة، ولا شك أنها لا تتعارض أبدًا مع إخلاصي لوطني.

وعلى الإجمال إذا كان كل بني البشر في الشرق والغرب يستطيعون الاتحاد على تعليم واحد فإنما هو تعليم الإسلام وحده، لأنه فوق القومية ولا يتعارض معها؛ فالحق لا يتعارض مع القومية. وإذا كان في القومية مفهوم خاطئ أمكن كشف هذا الخطأ في مرآة الحق.

وعندما أقول إن تعاليم الإسلام لا تتعارض مع القومية ولا تتصادم معها.. فلا يعني ذلك أن مفهوم الوطنية في كل بلد لا يمكن أن يتصادم مع الإسلام. إن مفاهيم القومية في بعض البلاد تتصف بالالتواء، وتعريفهم

للوطنية مختلف تمامًا. فمثلاً في معظم بلاد العالم اليوم تغيرَ مفهوم العدل، وتغير مفهوم الإخلاص؛ فتعني الوطنية عـــندهم أن تبقى مخلصًا لوطنك سواء كان موقفك في جانب الصواب أم في جانب الخطأ، ولا يهم أن تكون غـــير مخـــلص مع القيم الإنسانية العليا، أو مع التعاليم الإلهية المتأصلة في فطرة الإنسان! إذا كان هذا تعريف الوطنية فلا شك أن الإسلام يتعارض معها؛ بمعنى أنه سوف يصحح هذه المفاهيم مهما كانت التضحيات التي تبذل في سبيل ذلك. فما دام بنو الإنسان لم يستقيموا بحسب الفطرة و لم يتطهروا بعد، ولا تستجيب فطرتهم لله تعـــالى.. يمضي الإسلام في تصادمه مع هذه المفاهيم الخاطئة. وهذا هو الصِدام الذي سوف يسمع الإسلام بسببه صيحاتِ التأييد في كل بلد.

تأييد الموقف الأحمدي

في الظروف العالمية الراهنة يتلقى موقف الجماعة الإسلامية الأحمدية تأييدًا في كل مكان وترتفع الأصوات في حقِّـــه. منذ يومين أخبرني أحمدي من دولة كبرى أن معلِّقًا مشهورًا واسعَ التأثير علَّق حول الموقف الراهن كما لو أنه يقرأ خطبك، ويتبنَّى كل النقاط التي عرضتها. وسألني صاحب الرسالة قائلاً: أَخبِرْني، هل اتصلتَ به أو هل اتصل به أحد الأحمديين؟ لقد وصلتني رسائل من أماكن أخرى، ليست رسالة واحدة بل عدد منها، حول هذا المعنى. وواضح أن هذا تقريظ لخطبي، ولكني لست من الجهل بحيث أتقبل هذا الثناء، فهو لا يتعلق بي، وإنما يتعلق بالإسلام. كل الثناء لله جل وعلا، وللدين الذي أنزله. وهذا شهادة على صدق وامتياز تعاليمه. ومـــع ذلك فهي فعلاً معيار لي أختبر به الحقيقةَ. وكان هذا سببًا لرضاي، بمعنى أن ثقتي تزداد في تعليقاتي التي ســـقتها حول هذا الموقف طبقًا لتعاليم الله تعالى. ولولا ذلك ما أمكن أن تؤيد الفطرة الإنسانية تلك التعاليم هكذا.. بالكلمة المسموعة والمقروءة في مختلف البلاد.. وبصوت واحد.

فهـــو إذن وقـــت عصـــيب عـــلى المســـلمين، وينبغي عليكم في أوقات الخطوب أن تحفظوا مشاعركم واســـتجاباتكم وأفكـــاركم، ولا تدَعوها تفلت خارج دائرة الإسلام المُحبِّة للسلام، لأنكم إذا خرجتم منها تعرضتم للأخطار.

هل هذه الحرب جهاد؟

وعن مسألة الجهاد التي تُثار هذه الأيام.. سألني عدد من الإخوة الأحمديين: بماذا نجيب عن هذا الموضوع؟ هل هذه الحرب جهاد طبقًا لتعاليم الإسلام؟ سأجيب على هذا التساؤل في هذه الخطبة، لأنكم لا تستطيعون معرفة كل التفاصيل من خلال المراسلات.

جـــاء أكمل التعاريف لمفهوم الجهاد الإسلامي في سورة الحج من القرآن الكريم، في الآية التي تلوتها عليكم مـــرارًا، وبينتُ لكم تفسيرها، حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَـــتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيـــهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة الحج: ٤٠ و٤١).

فـــالله تعـــالى يأذن برفع السيف في وجه من يرفعون السيف ضد المؤمنين بغير وجه حق، على سبيل الظلم والعدوان والاضطهاد. تُصوِّر هذه الآية مفهوم الجهاد بحيث لا يمكن تعريف الجهاد بأعظم أو أكمل منها. ولو طبّقـــنا هـــذا التعريف لم يكن الموقف الحالي جهادًا بالمفهوم الإسلامي، وإنما هو حرب سياسية. وكل حرب سياســية.. سواء أكانت بين المسلمين وغير المسلمين، أو بين المسلمين أنفسهم.. لا تكون جهادًا. والواقع أن بعـــض الناس شرعوا يحسبون حرب الحقوق جهادًا؛ ولما كان كل فريق يحسب نفسه محقًّا.. فإنه يشن الحرب باسم الله وفي سبيل الحق ويكون جهادًا! ربما يكون هذا تعريفًا ثانويًّا للجهاد، ولكن ما يسمى جهادًا بحسب التسمية الإسلامية لا ينطبق على الموقف الراهن، لأنه تعريف يخالف المنطق الأساسي بأن من كان مِن الفريقين عـــلى الحق فحربه ستكون جهادًا طبقًا للتعريف القرآني. يتحارب الوثنيون، ويتقاتل أتباع الديانات، ويتعارك البيض والسود.. وهناك أنواع شتى من الحروب تشتعل في العالم، ولسوف تشتعل في المستقبل؛ وكلما تحارب فريقان فمن الواضح أنه إذا لم يكن أحد الفريقين على الحق مائة بالمائة فإنه يكون على الحق بنسبة كبيرة، ولا يمكن، أو من النادر جدًّا، أن يكون الجانبان متساويين في اللوم أو في الحق، وعلى العموم يكون أحد الفريقين ظالمًا والثاني مظلومًا. وحرب كل مظلوم ليس جهادًا.. وإنما حرب المظلومين الذين مُنعوا من إعلان إيمانهم بالله تعالى، والذين عوقبوا وأوذوا بسبب عقيدتهم الدينية تكون جهادًا. يبين القرآن الكريم أنهم لم يرتكبوا جريمة ما ﴿إلا أن يقولـــوا ربـــنا الله﴾.فإذا فُرض القتال لهذا السبب فقط، وابتدأ العدو القتال ورفع السيف؛ ولم يكن المســـلمون هم البادئين بالقتال؛ ولا تتعدى «جريمتهم» قولَ ﴿ربنا الله﴾، وإنكار كل الآلهة سوى الله تعالى.. فمثل هذه الحرب هي الجهاد.

فليس الجهاد هو الحرب في سبيل الحق، وإنما الجهاد حرب في سبيل الحق بالمعنى الذي أوضحته آنفًا. وهذا لا ينطبق على الحرب بين العراق والبلاد الأخرى. لقد ضايقت الكويتُ العراق لسبب ما، ونتيجة لهذا الضيق والاعتقاد بأن هذا بلد صغير.. كان جزءاً من بلدنا؛ بتَره البريطانيون وفصلوه منا.. لذلك فعلنا ما هو من حقنا الأساسي، وتحت تأثير غرور قوتهم إلى حد ما قالوا: ما هذا البلد الصغير أمامنا. نحن الذين حاربْنا إيران لثماني ســنوات وتحديناها حتى إنها خشيت على نفسها الفناء منا. تغلغلنا في عمق أراضيها، ثم تراجعنا؛ ومالت كفة الميزان إلى من اكتسب مزيدًا من الوزن، واستمر الصعود والهبوط. قد يكون مثل هذا التفكير ما شجّع العراق بـــأنهم قادرون على تحطيم هذه الدولة الصغيرة في لمح البصر، ولذلك قاموا باجتياحها. ما هي الأسباب التي حـــدت بالعـــراق ليحتل الكويت؟ وما هي الخلفية وراء ذلك؟ ومن هو في الواقع قائم على الحق؟ وهل هذه الطريقة لأخذ الحق شرعية أم لا؟ كل هذه تساؤلات كان لا بد من التفكر فيها. وكان على العالم الإسلامي أن يتفكروا سويًّا في هذه المسائل.

على أي حال.. ليس بوسعنا أن نطلق على هذه الحرب التي قامت بسبب الهجوم على الكويت اسمَ الجهاد، ولا أن نسمي جهادًا أيضًا تلك الحرب التي قامت كردٍّ فعل لها ضد العراق. ولكن المسلمين يندفعون في جهالة لا لـــزوم لهـــا، ويستخدمون المسميات الإسلامية استخدامًا خاطئًا في ما لا يناسبها، وبذلك يسيئون إلى سمعة

الإســـلام. إن الإسلام يتعرض للسخرية والاستهزاء في كل أنحاء العالم، وتضحك منه الأمم، ولا يدرك ذلك هؤلاء المسلمون الغارقون في غبائهم!

الغرب هو المسئول

ولكـــن لا بـــد لـــنا من التفكر.. لماذا لا ينفك القادة هكذا سادرين في خداع الجماهير، ويدفعونهم يقدمون تضحيات هائلة في حروب ليست من الجهاد في شيء وإن أسموها جهادًا؟ هناك سبب عميق لهذه الظاهرة يجب أن نكشفه. إذا فهمنا هذا السر أمكننا فهم كيف أن أمم الغرب مسئولة إلى حد كبير عن هذا التطبيق الخاطئ للجهاد. ولو حللنا هذا الموقف تحليلاً صحيحًا لتبين لنا أن هؤلاء الذين يسخرون من الإسلام ويستهزئون به.. هم المسئولون مسئولية كبيرة عن هذا الاستعمال الخاطئ لمفهوم الجهاد.

لا يطيقون ازدهارنا

الســـبب وراء ذلـــك أن لـــدى المسلمين منذ قرون عديدة انطباعًا بأن الأمم الغربية لا تطيق رؤية ازدهارهم وتقدمهم. وهذا الانطباع مبهم فلا يستطيع كل واحدٍ التعرف على كنهه حقًّا. أحيانًا تعتري المرء مخاوف لا يعـــرف كيـــف ولم نشأت، ولكنه يحس بالخوف. وفي أوقات يشعر المرء بالألم ولا يدري سببه. وفي أوقات تكون انطباعات المرء دفينة في أعماق فطرته، وتمتد دوافع هذه الانطباعات على مدى تاريخ طويل. أيا كانت طـــريقة تعـــاملات الغرب مع المسلمين خلال القرون الماضية.. فقد أكد تاريخ هذه التعاملات للمسلمين أن كـــراهية الغرب لهم مبنية على التفرقة الدينية. وسواء صرحوا باسم الإسلام أم كتموه فإنهم لا يطيقون تقدم الأمـــم الإسلامية، فيتخذون دائمًا التدابير الكفيلة بتمزيق قوتهم وتقطيعها إربًا إربًا. هذا هو الانطباع العميق الذي يكمن في قلوب عامة المسلمين ممن قرأوا التاريخ أم لم يقرأوه.

في الواقع تمتزج بعض انطباعات التاريخ في تفكير ومشاعر الإنسان كما يمتزج شيء بالماء. وإذا لم تر اليدَ التي مزجته، فبوسعك التعرف على أثره إذا ذقتَ الماء. وهكذا فعامة المسلمين متيقنون في قرارة نفوسهم من جراء تجـــربة تاريخيـــة طويـــلة.. أنه في أوقات الشدة تقف أمم الغرب ضدنا، وتقوم بكافة الأعمال التي تضر عالم الإسلام.

دور أمريكا وبريطانيا

وفي الـــنـــزاع الحـــالي، بل وقبله.. كان هذا الانطباع أشد ما يكون بسبب المعاملة الأمريكية. فيقع النصيب الأكـــبر من المسئولية في تقوية هذا الانطباع على عاتق أمريكا. وعلى سبيل المثال فإن النفوذ الأمريكي لعب الـــدور الأعظم في إقامة دولة إسرائيل في قلب المنطقة المسلمة.. هذا الشر الذي بدأ على يد البريطانيين كثمرة لأفكارهم. كلما تنشب الحروب فإنهم يعقدون اتفاقيات وتحالفات سرية مع بعض الناس. ولقد فعلوا ذلك مع اليهود، ووعدوهم أنهم سيمنحونهم أرضًا في قلب بلاد العرب، ويقيمون لهم عليها دولتهم الحرة؛ ليمارسوا من هناك نفوذهم على كل بلاد العرب باسم مملكة داود، ومن ثم يسيطرون على العالم كله. ربما لم يكن الاتفاق بنص هذه الكلمات تمامًا.. ولكن عندما جرى الاتفاق كان هذا هو فحوى الرسالة التي تلقاها اليهود، وكان

هذا حلمهم الذي تحقق بالفعل. ولقد حققوا هذا الحلم باسم الأمم المتحدة، ولعب الأمريكان الدور الأعظم في هذه العملية.

أمر مدهش

إن الشـــيء الذي لم يزل يدهشني حتى اليوم أنهم لِمَ لم يطرحوا حتى اليوم هذا التساؤل الأساسي: هل لمنظمة الأمـــم المتحدة الحق في خلق دولة جديدة في العالم؟ إن إنشاء الدول ميراث تاريخي يأتي إلينا بنفسه. إن سلطة مجـــلس الأمـــم المتحدة كانت محصورة في الدول التي كانت قائمة وانضمت إليها برغبتها. لم يكن ثمة ميثاق اتخذتـــه الأمم المتحدة بأن الانضمام أو عدم الانضمام إلى الأمم المتحدة يؤثر على أي بلد، أو بأن هذا المجتمع الدولي لـــه الحق في خلق دولة ما، أو بوسعه، إن شاء، تدمير دولة ما. فالحق الذي لم يُمنح للأمم المتحدة قد مارسته وخلقتْ دولةً بغير حق. ولقد لعبت أمريكا أسوأ الأدوار وأشدها عدوانية في هذا الظلم.

هـــذه هـــي الذكريات التي لا يمكن لأي مسلم في الأرض أن ينساها. ومع أن العرب دأبوا لفترة طويلة على تســـميتها «المشـــكلة العربية»، ولم يُدخلوا معهم فيها سائر العالم الإسلامي، إلا أن المسلمين ضموا أنفسهم تلقائيًّا إلى هذه المشكلة.. لأنها ما برحت قائمة محفورة في قلوبهم.. أنها ليست عداوة للعرب.. وإنما هي عداوة للإســـلام. لقد عبّروا عن هذه العداوة مرة بعد أخرى، وفي مناسبات شتى. مثلاً عندما كانت إسرائيل تطلق العـــنان لفظائعهـــا ضد الفلسطينيين بما تقشعر لذكره الأبدان وتدمى القلوب.. عندما قتلوا النساء والأطفال والعجائز، حتى قضوا على أهل معسكر كامل فلم يتركوا فيه حيًّا يتنفس بما فيهم الأطفال الرضع.. لم يتحرك العالم، ولم تُبد أمريكا اهتمامًا؛ بل كلما حاولت الأمم المتحدة إصدار قرار يشجب هذا العدوان كانت أمريكا تقف حائلاً وسدًّا منيعًا في سبيل ذلك. وهذا تاريخ حالك طويل.

والآن يطلّ هذا السؤال برأسه: هل تستحق الأمم المتحدة حقًّا هذا الاسم الذي تحمله، حيث يتمتع فيها خمس دول بحق تقرير مصير العالم.. أعني الدول التي تُسمَّى الأعضاءَ الدائمة التي لها حق الاعتراض على القرارات أو "حق الفيتو".. أي لو اتحدت كلمة العالم كله على رأي واحد.. فبوسع دولة واحدة منها أن تعترض فيرفض هذا الرأي؟ هذا هو الإجراء الذي يجعل دولة واحدة هي العالم كله!

الواقـــع أن قاعدة القرار الحالي للأمم المتحدة هو نفس الشيء الذي لا يزال ساريًا نافذًا. عندما أعلن الرئيس بوش مهدّدًا: بأي سلطان يحارب العراق الرأيَ العالمي.. أدرك كل إنسان أن هذا الرأي العالمي ما هو إلا رأي أمريكا أو رأي الرئيس بوش نفسه. ثم إن في لهجة التهديد هذه غطرسةً تولّد النفورَ. عندما يلقي المسلم بنظره عـــلى علاقـــتهم باليهود وإسرائيل.. فلا مناص لـــه من استنتاج أنه سواء أخطأ العراق أم لا.. فإن الإجراء الانتقامي الذي يُتّخذ الآن ضد العراق إنما هو لصالح إسرائيل فحسب. هناك أشياء لا تقال، ولكنها علامات ثابتة في القلوب بلا تحليل.. بسببها يعتقد المسلم العادي أن كل ما يجري إنما هو ثمرة العداء للإسلام.

العدوان من حق إسرائيل

فإسرائيل لها الحق أن ترسل طائراتها عبر البلاد العربية وتهاجم المفاعل النووي العراقي وتدمّره! مَن ذا الذي قضى بأن المفاعل النووي مؤسس لصنع القنابل، وأنه لم يكن للاستخدام السلمي؟ أية منظمة أمم متحدة تلك التي فوّضت إسرائيلَ وأعطتها سلطةَ اتخاذ القرار والقيام بتدمير المفاعل؟ عندما حدث هذا لم يعلن أحد عن حق العراق في القيام بما يشاء من أعمال انتقامية ضد إسرائيل! و لم يقل: إن حق العراق في الانتقام قائم يومها أو اليوم أو غدًا!؟ هل قبلت الأمم المتحدة بهذا الحق للعراق؟ لو سمع أحد هذا الصوت فإني لم أسمعه. لو بلغ أحدًا هذا الخبر فإنه لم يبلغني، بل لم تقع عليه عين مسلم!

وإذن فتفكير العالم الإسلامي بأن أعمال العداء الراهنة قائمة أيضًا على بغضاء عميقة للإسلام.. لتفكير له ما يبرره، وينهض على أساس من الحقائق. هذه الأعمال العدائية البينة والمظالم الواضحة معروفة لكل الدنيا. العيون تنظر ثم تنسى، ولكن الانطباعات تبقى.. وهي انطباعات حقيقية.

ثم العجيب أنه عندما يُهاجم العراق إسرائيلَ ببعض القذائف، فتتهدم بعض المباني السكنية.. يثير العالم ضجة هوجاء! ألا يذكرون فلسطين؟ ألا يذكرون الغارة الإسرائيلية على المفاعل العراقي؟ إنهم بذلك يضعون الأساس للفظائع والاعتداءات التي سوف يلدها المستقبل! هذه هي الأمور التي لا تزال تجرح مشاعر المسلمين في أعماقهم وتدميها؛ وعندما يعبّرون عن أحاسيسهم تنبري لهم الأمم وتسأل: أَعطُونا اليوم قراركم.. هل ستبقون على وفائكم للإسلام أم تخلصون لوطننا؟ أي عدل هذا؟ لأنه عند التعبير عن الحقائق.. يكون من الظلم الخطير طرح مسألة القومية. إذا كانت هذه الأمور حقائق صادقة.. فللمسلم كل الحق في التعبير عنها.

مكافأة إسرائيل

إن هذا الشيء البغيض الذي صار واضحًا، ستتلوه أشياء بغيضة أخرى. إن أمريكا أجرت مباحثات سرية مع إسرائيل عندما بعثت إليها بشخصية هامة ممثلة لحكومتها المركزية. ومن بين أمور سرية أخرى، وستبقى في طي الكتمان لبعض الوقت، ولكنها سوف تنكشف للعالم عندما تأخذ دور التنفيذ.. أنهم منحوها أكثر من ستة مليارات من الدولار كي لا تقوم بعمل انتقامي ضد العراق، مع الاحتفاظ لها بحقها في أن تفعل ذلك فيما بعد! قالت لهم أمريكا: بعد أن نعاقب العراق بأيدينا يمكن لكم الانتقام من القليل الذي يتبقى لكم! كانت العادة في الأيام الغابرة أنه عندما يهلك طاغية أو من حسبوه كذلك.. ويراد الانتقام والتشفي منه.. كانوا ينبشون قبره ويستخرجون جثته، ويعلّقونها في المشنقة. واتفاق أمريكا مع إسرائيل لا يخرج في الواقع عن ذلك. قالوا: دعُونا أوّلاً نَقُم لكم بهذه الخدمة.. نقتل العراق، ثم نعطيكم الجثة لتمثّلوا بها أو تفعلوا بها ما تشاءون؟

أين مبادئكم؟

والسؤال الآن: هل كل هذه الأفعال من العدالة؟ هل هي من الإنسانية؟ ثم هناك شيء آخر لا تراه الدنيا؛ فهم يُمطرون العراق بأشد القنابل فتكًا لتنزل على السكان المدنيين، ومعظم من تأثر بالقصف هم سكان غرب العراق. ولقد أمطروه بها بعد حادثة إرسال الصاروخ العراقي على إسرائيل. وإذا كانت واقعة إرسال الصاروخ

ظـــلمًا من جانب العراق.. فلقد ارتكبوا ضد العراق مظالم أفدح وأشد ألف مرة. في مقابل كل بيت انهدم في إسرائيل سوَّوا بالأرض ألف بيت عراقي؛ وفي مقابل كل إسرائيلي جريح جرّحوا وقتلوا ألوف العراقيين. لقد روى القادمون من هناك أن روائح الجثث المتعفنة المحترقة في بعض المناطق تمنع الناس من المرور فيها، وكثيرًا من المـــناطق خلا من السكان. هذا هو الانتقام الذي تقوم به أمريكا نيابة عن إسرائيل. وهذا بلا شك جانب من الاتفاق الذي لم تنكشف بعد كل تفاصيله.. ولكن البيان العملي والتطبيق الفعلي جعل الأمور واضحة. ومع ذلك فهم لا يزالون يدّعون بأنهم حملة لواء الإنسانية، وأنهم يتحدثون من منطلق أخلاقي سامٍ! ويقولون لسائر العـــالم: الخزي للعراق، لأنه لا يعرف ما هي الإنسانية. يرمي الإسرائيليين الأبرياء العزّل! إن هذا لشيء مغرق في الخطأ!

إن الإســـلام، بلا شك، لا يسمح بإلحاق الضرر بأي صورة كانت بالمواطنين المسالمين العزّل من السلاح. إن ديـــن ســـيدنا محمد ﷺ لا يبيح ذلك أبدًا. وكلما كان هناك جهاد بالسيف كانت تعاليمه الصريحة الجازمة لـــلجيوش قـــبل تحرُّكها ألا يقتلوا جماهير الناس، ولا يؤذوا النساء والمسنّين والأطفال. هذه التعاليم الإسلامية الصـــحيحة معروفة من أقواله وسنته ﷺ. ولذلك لا أقول: إن ما فعله العراق صواب، ولكن أقول: وإنْ أخطأ العـــراق، فالقواعد والقوانين العالمية التي تزعمون أنكم حَمَلَتُها العظام.. تقول باعتبار هذا ردًّا ثأريًّا من جانب العراق. فالمسلمون الذين يعيشون في إسرائيل يُضرَبون كل يوم، ويُقتّل العزّل ويُقذَفون بالنار. إذا اتخذ العراق إجراءً انتقاميًّا بالنيابة عنهم فلا تقولون إنه ردّ ثأري وشرعي، ولكنكم تقولون بأنه ظلم وعدوان وحشي، وأنه اســـتفزاز يعطـــي الحق لإسرائيل في الانتقام.. بل تعقدون معها اتفاقات سرية.. وتقولون لها: سوف نعطيكم الأموال، ونقوم ضدهم بأشد الفظائع كي ترضى خواطركم، ومن يُكتب لـــه الحياة من هؤلاء الأبرياء نسلّمه لكم، فتدمّرون ما يبقى منهم، أو تعلّقون جثثهم انتقامًا يشفي غليلكم!

كـــل هذه الأفعال شديدة التناقض مع القيم الأخلاقية التي يدّعون بها على دقات الطبول. هذه الأعمال تبطل كـــل الدعايات التي يقومون بها في كافة أرجاء العالم. يدّعون بأن الرئيس صدام دكتاتور خطر.. وأننا نعاقبه لأنـــه يُكره رعاياه على العبودية. نعاقبه لأنه يضطهد أهل بلده ويطلق عنان الطغيان عليهم. نحن ضد الرئيس صدام من أجل حريتهم ولسنا ضدهم. ولكنهم مع قولهم هذا يصبُّون نقمتهم على الشعب البريء الذي تقول تصـــريحاتهم بأن صدام يرتكب ضدهم الفظائع! فما هي جريمة النساء والأطفال الأبرياء الذين هم مضطهدون من قبل حسب تصريحاتكم، وباسم تحريرهم تشنّون أنتم هذه الحرب الضروس!؟ أتعاقبونهم على جريمة ارتكبها صدام ضد إسرائيل عقابًا هو أنكى من عقاب اليهود!؟

أي حق لكم في تلويث التعاليم المسيحية الطاهرة، وتلطيخ تاريخ النصرانية بالدماء، لتكونوا في ذلك سواء مع تاريخ اليهود الدموي؟ إن كل هذه أعمال ظلم، وكلها تتناقض مع العدالة، وتتعارض مع التقوى.. وهي التي تفجّر ردود فعل في قلوب المسلمين. إنهم مواطنون مسالمون في البلاد التي يعيشون فيها، ولكنهم عندما رفعوا

الصـــوت عاليًـــا ليحتجوا على المظالم، دون خروج على قانون أوطانهم، وصفتموهم بالخيانة واتخذتم ضدهم الإجراءات. فأي نوع من العدالة هذا الذي تفعلون؟

جواب "توني بن" هو جوابنا!

لقـــد اتصـــل بي أحد المسلمين الأحمديين هاتفيًّا وسألني: إنني ذاهب إلى مقابلة بالتلفزيون البريطاني B.B.C، ويســألونني: ما موقفكم، وما تعليقكم على الموقف الراهن؟ أَخبِرْني عما يكون عليه جوابي. قلت له: قل لهم: إن تعليقي هو تمامًا كتعليق «توني بِن» (Tony Benn)! إذا كان هذا الرجل ذو التفكير المنصف يرفع صوته بمـــا هو في قلبي.. فما الداعي لتكرار نفس القول بلساني؟ لو أني قلته لرميتموني بالخيانة، ولكن إذا قاله «توني بـــن» فلن تكون بكم الشجاعة لاتهامه بالخيانة. كل ما يحدث إذَنْ يناقض العدالة ويخالف التقوى. ليس هناك قانون، ولا مبدأ، ولا موقف أخلاقي رفيع.. بل إنهم قد سقطوا إلى أسفل دركات الانحطاط الأخلاقي!

هـــذا هو الموقف الحق، القائم على التقوى.. ومع ذلك لا يحق لعالم دين مسلم أو حاكم مسلم أن يطلق على هـــذه الحروب اسم الجهاد الإسلامي. عندما يُدعى جماهير المسلمين باسم الجهاد.. فإنهم يلبّون الداعي، لأنهم يعرفون في أعماق قلوبهم – وقد أثبت سلوك بلاد الغرب مرارًا وتكرارًا صدقَ ما يرون – أنه ليس وراء تلك الحروب إلا البغضاء ضد الإسلام. ولذلك عندما يُقتَل أولئك الأبرياء فإني على يقين راسخ من أن الله الرحيم ســـوف يتعامل معهم بواسع رحمته، وأنهم وإن كان لا يمكن اعتبارهم من الشهداء على ضوء تعاليم الإسلام الصـــحيحة.. إلا أنهم قد ظُلموا بيد أعداء الإسلام، فسوف يعاملهم الله تعالى برحمته وغفرانه. ولكني ما زلت أكرر: ليس من حق شيوخ الدين ولا الحكام المسلمين أن يسموا هذه الحروب السياسية جهادًا إسلاميًّا.. حتى وإن كانت حروب المظلومين!

حصد السلام بالحرب محال

الواقـــع أن عداوتهم للإسلام أضحت بينة واضحة، ولا تزال تزداد وضوحًا. مهما أنكروا ذلك فصوت القلب يـــرتفع بطـــريق أو آخر ويترجَم إلى كلمات. أما ممارساتهم العملية فكما أسلفت.. إن الصور البغيضة المطلية بالدمـــاء وبفرشـــاة الكراهية للإسلام تكثر يومًا بعد يوم، ولا تفتأ ملامحها تزداد وضوحًا أمام العالم. ونتيجةً لذلك، فمهما يحدث، لن يوطد السلامَ في المنطقة. لأنه لم يفلح أحد بعد في تبديل المبدأ الأساسي بأن الكراهية لا تنجب إلا البغضاء. إنهم يجلسون من الآن ليدبروا الخطط كيف يوطدون السلام في منطقة الشرق الأوسط بعد الحرب، ولكن هذه أمور غير واقعية.. ومن أحلام الجاهلين! إذا بذرت بذور الكراهية إلى هذا العمق فلن تنبت إلا الكراهية، وحيثما نثرت بذور الحرب فلن تثمر سوى الحرب، لأنه من المستحيل أن يحصدوا السلام من الحروب. إذا لم يكن اليوم فسيرون غدًا أن الخطوات التي يتخذونها اليوم سوف يخرّبون بها السلام في العالم إلى الأبد. وأيًّا كان المجرمون الجانون فلسوف ينـــزل الله بهم عقابه، لأن الإنسان لا حول له ولا قوة.

إن الجماعـــة الإســـلامية الأحمدية لا تعبّر مطلقًا عن رأي وليد التعصب، بل لا يمكن ذلك، لأن التوحيد قوّم قلوبـــنا على الاستقامة، فلم يُبق بها أثرًا للاعوجاج. إن إيماننا ووفاءنا مع التوحيد، وإن مَن استقر توحيد الله

تعـــالى في قلبه يستحيل أن يجد التعصب إليه سبيلاً. فهذا ضدّان لا يجتمعان في القلب أبدًا. إن توحيد الله قوة توحّـــد العالم كله. ولن يدخل الهوى فيمن عمِّر قلبه بالتوحيد. فهذا قانون جوهري لا يتبدل، ولهذا السبب أُعلن باسم الجماعة الإسلامية الأحمدية أنه مهما كان في تعليقاتنا من مرارة ظاهرية.. فإنها مبنية على الحق. وإذا لم يكن اليوم فغدًا سوف تؤيدنا الدنيا، وتقول لنا: نعم، لقد رفعتم صوت الحق، ولم يكن بكم أثر من التعصب والهوى.

الكِبر البغيض

ثمة أشياء تثقل على قلوب المسلمين وتقلقهم أشد القلق، منها مسلكهم المتعجرف ولهجتهم المتعالية، وخصوصًا عندما يتحدث رئيس أمريكا عن العراق أو الدول الأخرى التي لا تتعاون معه، فإنه يبدو في حديثه كما لو أن إلهًـــا نـــــزل إلى الأرض يتحدث. ومن كان مؤمنًا بتوحيد الله تعالى لا يمكن أن يُحني رأسه أمام هذا الكِبر الـــبغيض. هـــناك أنواع شتى من الشرك والوثنية، ولكن الكبر والغطرسة هو أشدها مقتًا. ولذلك فمِن أول واجبات المؤمن بوحدانية الله تعالى أن يرفع صوته ضد الكبر والغطرسة. وإن الجماعة الإسلامية الأحمدية هي في المرتبة الأولى من الموحدين، بل الأحرى أن نقول إنهم حملة لواء التوحيد اليوم. ولذلك سنرفع صوتنا ضد كل أنـــواع الوثـــنية، وسنرفع صوتنا ضد كل أشكال الكبر. ليس هناك خوف من أهل الدنيا يستطيع خنق هذا الصوت، لأن كل تلك الآلهة الباطلة التي تحاول السيطرة على مقدرات العالم.. لا يمكن لمؤمن موحِّدٍ أن يحني الرأس لها ويبقى موحِّدًا بالله في ذات الوقت.

مِمَّ تخافون عليّ؟

عـــندما أقوم بهذه التعليقات يكتب إليَّ بعض المسلمين الأحمديين أننا نشعر عليك بقلق عميق. لماذا تقوم بمثل هذه التعليقات؟ دَعُوني أذكّركم بأني أقولها، لأن سيدي ومولاي محمدًا المصطفى ﷺ كان يقول بمثلها. عندما رفع صوته الكريم مناديًا وشاهدًا على وحدانية الله تعالى، عارضَه العالم كله، ناهيك من أهل مكة. لقد توسلوا إليـــه، ثم حـــذّروه: لماذا تعرّض حياتَك للخطر؟ ألا تدري كم من القوى تتجمع ضدك وتنذرك؟ ولكنه ﷺ أجابهم دائمًا بنفس الجواب: إنني مستعد لكل تضحية في سبيل توحيد الله تعالى. فهذا هو هدف حياتي، وهذا هـــو روح رسالتي، وهذا هو جوهر ديني. يمكنكم أن تحولوا بيني وبين كل شيء آخر، ولكنكم لن تستطيعوا منعي عن التوحيد، وتبليغ رسالة التوحيد. ما هذا الذي تقولون؟! «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري.. على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله أو أُهلَكَ دونه».

فمِـــمَّ تخافون عليَّ؟ أَمِنْ سلطان أمريكا أو مكر اليهود، أو قوة البريطانيين أو بأس القوات المتحالفة؟ إذا كان رفـــع صـــوتي بالتوحيد يجعلهم يمزقونني إربًا إربًا، فوالله الذي لا إله إلا هو.. إن كل ذرة من جسدي سوف تصـــرخ: فـــزتُ بـــربّ الكعبة، فزتُ بربّ الكعبة. وهذا هو الصوت الذي يجب أن ينطلق اليوم من قلوب المسلمين الأحمديين كافة ومن كل ذرة في كيانهم في شتى أنحاء الأرض.

ما هي برامجهم؟ وما هي القوى التي يعتمدون عليها؟ هم يتحدثون عن «عاصفة الصحراء». ألا يعلم هؤلاء أن أمــر العواصف بيد الله تعالى؟ أنا لا أعرف كيف يكون قضاء الله تعالى، ولكنني أعرف حقًّا أن قضاء الله جل وعــلا ســيدمر المتكــبرين في النهاية. إذا لم يكن اليوم فغدًا يكون دمار الكبر والغطرسة، لأن مملكة الله في الســماء.. ومملكته أيضًا في الأرض، ولسوف تتوطد فيها. اليوم أو غدًا أو بعد غد.. سوف تزول مملكة الكبر من الدنيا.. وعليهم تنقلب العواصف المهلكة، فتقضي على قواهم المتجمعة، ويتحطم هذا النظام القديم.

«الأمم المتحدة» لا تستحق البقاء!

تَذكَّروا دائمًا، واثْبُتوا دائمًا على هذا، فلا تنسوا أبدًا.. أن هذه التي تسمى اليوم «الأمم المتحدة»، لا يستحق أســلوبها الــبقاء. ستصبح هذه الأمم المتحدة ذكرى وعبرةً ودرسًا من دروس الغضب الإلهي. وعلى أنقاضها سوف تشيدون.. أنتم، أنتم يا عباد الله وخدامَ وحدانيته.. ستشيدون البناء الجديد. أنتم الذين سوف تقيمون الصروح الرائعة الشامخة للأمم المتحدة الجديدة، تلك الصروح العالية التي تلمس السماء.

يا خدامَ المسيح المحمدي! يا مَن كُلِّفتم بهذه المهمة الغالية.. سترون هذا اليوم أو غدًا.. أنتم أو جيلكم القادم، أو الجيــل الذي بعده سيشهدونه. هذه كلمات الله تعالى وهذه كتابات قدره التي لا يمكن لأحد محوها. أنتم العمّال الذين عليهم بناء تلك الصروح. لقد وُضعت في السماء الأسسُ لتلك الأمم المتحدة الجديدة، وعليكم أنــتم رفــع البناء. فلا تنسوا أبدًا ذلكما العاملين الكريمين، ولا تمحوا اسميهما من قلوبكم.. إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام.. وذكِّروا بهما أبناءَكم وأحفادكم وكل أجيالكم؛ بأن يا أيها العاملون في سبيل الله.. بذات التقوى والصدق والإخلاص والارتباط بتوحيد الله بحيث يسري توحيده في كل عرق منكم، ويغمر كل ذرة في أجســادكم.. سوف تمضون في هذا العمل البنائي العظيم، وسوف تتمّونه في القرن القادم وفي القرن الــذي يــليه، حــتى يصل البناء إلى كماله. إن شرف اكتمال هذا البناء.. الذي وضع أساسه سيدنا إبراهيم وشــاركه العمــل فيه ابنُه سيدنا إسماعيل عليهما السلام.. قد قدّر الله تعالى أن يكون لسيدنا ومولانا محمد المصطفى ﷺ. لا يقدر مخلوق على تبديل هذا القدر. إنما نحن عمّال وأبسط الخدام المتواضعين لسيدنا محمد ﷺ. فلا تبرحوا أوفياء، ولا تملّوا من تذكير أبنائكم وذراريكم.. كي يَدأبوا على العمل كالعمال في سبيل الله تعالى، ويُواظبوا على بذل الدم وبذل العرق، ولا يَكِلّوا أبدًا، ولا يَنصرفوا عن العمل حتى يحقــق قدرُ الله تعالى وعدَه ﴿لِيُظْهِــرَهُ على الدّينِ كُلِّه﴾. فيفوز الدينُ الذي أُرسل به سيدنا محمد المصطفى ﷺ على الدين كله، ويكون هــناك لــواء واحد هو لواء محمد المصطفى ﷺ، ودين واحد هو دين الله تعالى، ومملكة واحدة هي مملكة الله الواحد الأحد.. تتوطد أركانها في هذه الدنيا.

اللهم قدِّرْ لنا أن نرى هذا بأم عيوننا! وإلا فليشهَدْه، يا ربنا، أولادنا، وليذكُرونا. أو إذا شئتَ، يا رب، فليكن لأحفادنا أن يشهدوه بعيونهم! ولكني أؤكد لكم أنه سواء شهدتموه بعيون رؤوسكم أم لا.. فإن عيون روحي تــرى هذه الأحداث. إنها ترى تلك التغيرات العظيمة كما لو أنها تقع أمامي اليوم. وبعد أن نموت.. ستكون أرواحنا مطلعة عليها، وسوف تصلها الأنباء.. أن يا عبادَ الله الذين تحبّون الله حبًّا جمًّا، هنيئًا لكم جنة المأوى

وســـلام لا ينقطع. فإن السبل التي ضحيتم من أجلها صارت طرقًا رئيسية واسعة؛ وإن البنايات التي وضعتم لَبِناتِها وأحجارَها وحصباءَها.. قد بلغت تمامها، وصارت صروحًا رائعة لتوحيد الله تعالى. لسوف يتم ذلك. لسوف يتم ذلك إن شاء الله تعالى!.

اهـــتموا وركِّزوا على الدعاء؛ فروح قوتنا هي الدعاء. وما من ثورة روحية تقع في العالم إلا بالدعاء وحده. اللهم مكِّننا من القيام بأكثر ما يمكن في هذا السبيل!. اللهم آمين!.

٢٥ يناير ١٩٩١